الفصل الثاني

قيام السلطنة السلجوقية

اوضاع بلاد الشام والجزيرة واحوالهما قبل السلاجقة . تأسيس السلطنة السلجوقية من قبل طغرلبك

كأني بالترك قد اتتكم على برانين مخدمة الآذان حتى يربطوها بشط الفرات . (عبد الله بن مسعود) .

اتركوا الرايضة ما تركوكم ، فانهم سيخرجون حتى ينتهوا الى الفرات فيشرب منه اولهم ، ويجيء أخرهم فيقولون قد كان هـا هنا ماء

(معاوية بن ابي سفيان)(١)

☆ ☆ ☆

الشام عند الجغرافيين هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلا حتى ما بعد طرسوس في تركية اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون، بعد فتحهم للشام ، هذه البلاد خمسة اجزاء او مناطق عسكرية اطلق على كل

منطقة منها اسم جند وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص، وجند قنسرين ، ومن حيث الواقع العملي كان عمر هذا التقسيم قصيرا واستمر نظريا ليس اكثر (٢).

سكن الشام قبل الفتوحات الاسلامية من قبيل عدد من القبائل العربية كان اكثرها - تبعا لروايات النسابين العرب - منحدرا من اصل يماني ، ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب ، ولقد استقرت كلب جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل الى شمالي بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من اصل قيسي، وكان من اشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ هـ /٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب اكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور مع الفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان ان يقسره على مثل هذا الاعتراف(٣) .

ولعل من اهم نتائج هذه المعركة انها قسمت بلاد الشام الى قسمين : شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، وخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعيا عبارة عن دارين دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال ،وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالبا ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

لقد كانت كلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعا للنسابين العرب ، انحدر العرب من ابوين : واحد جنوبي وآخر

شمالي ، ومن العجيب ان تقطن القبائل ذات الأصل الجنوبي جنوب بلاد الشام وتقطن القبائل الشمالية شمالي بلاد الشام ، متبعين هكذا نمط التقسيم الذي كان موجودا ، في الجزيرة العربية – الوطن الأم – قبل الاسلام ! ويتساءل المرء أحدث هذا بعامل الصدفة ، ام تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من اسطورة الانساب العربية المخترعة ؟

إن قضية الأنساب العربية مع تشكل القبائل قبل الاسلام ، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الأسلامية بحاجة إلى دراسة علمية حديثة على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ،

انما يبدو أن من الأسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه الى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم اننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى اية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو الصحيح ايضا ، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام ديارا لها واعتبرت اي تحرك قبلي من الجنوب هو عملا عدائيا موجها ضدها ، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما اقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب ، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية ، واستعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة ، شاعر المرداسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما أرسل من القاهرة في سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م لمساعدة البساسيري في ثورته ، فبعدما وصل المؤيد في الدين الى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلبية واصطحابها معه والتوجه شمالا الى حلب

ومنها الى الرحبة حيث كان البساسيري ، ولقد تجاهل المؤيد اوامر القاهرة ، وراسل ثمال بن صالح أمير حلب ليسمح له بدخول أراضيه ، لأنه كان يعلم بأن اصطحاب قوة كلبية وادخالها الى ديار كلاب سيؤدي الى إخفاق مهمته .

ويلحظ المرء انه منذ القرن الخامس ـ الحادي عشر ان اسم الشام بات يطلق احيانا ليعني القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي ، روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م الى اخيه تتش «ان لا يتعرض الى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب» (٤) .

لقد كانت مدينة حلب دائما مركزا لشمالي بلاد الشام وفيها قام عدد من الدويلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام ، واقول كبرى وليس مركزا لأن الجنوب انقسم الى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الرملة والنفوذ فيه كان لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب ، ولقد كان الصراع دائما بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائما سياسيا ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها ابدا ، وغالبا ما تورطت طيء بمشاكل ذات صلة بمصر وسياستها .

في القرن الخامس للهجرة /الحادي عشر للميلاد كانت اجزاء كبيرة من سواحل شمال بلاد الشام وشمالها الغربي خاضعة للحكم البيزنطي . ولقد كانت انطاكية ، واللاذقية وجبلة اهم المدن في هذه الأجزاء . وكانت هذه الأجزاء قد دخلت تحت الحكم البيزنطي في القرن الرابع للهجرة /العاشر للميلاد زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بحلب بزعامة سيف الدولة .

وكان الجزء الجنوبي من بلاد الشام مع سواحله رغم وجود طيء وكلب فيه خاضعا في القرن الخامس لحكم الخلافة الفاطمية ، وهذه الخلافة كانت اسماعيلية لها سياستها الخاصة تجاه هذا الجزء . وكانت هذه السياسة جزءا من السياسة الخارجية العامة للخلافة الفاطمية تجاه بلاد الشام ككل والعالم الاسلامي بأسره . وقد نبعت هذه السياسة من مصدرين اساسيين :

واحد نظري والآخر عملي ، وقد قام النظري على عقيدة هذه الدولة التي هدفت للسيطرة على العالم الاسلامي – لا بل على العالم كله – ولاسقاط الخلافة العباسية وازالتها من الوجود . ولتحقيق هذا الهدف ، وحتى تصل القوات الفاطمية من مصر الى العراق كان عليها ان تبسط سيطرتها اولا على بلاد الشام . وفعلا ما ان استولى الفاطميون على مصر وسيطروا عليها حتى تابعت جيوشهم سيرها نحو بلاد الشام ، وبعد صعوبات جمة استطاع الفاطميون احتلال دمشق مع القسم الجنوبي من بلاد الشام (٥) . ولكنهم اخفقوا في بسط نفوذهم بشكل دائم على شمالي بلاد الشام ، وذلك بسبب مواجهتهم لعدة عقبات لم يستطيعوا تجاوزها ، وكان اهم هذه العقبات : أولا بعد شمالي بلاد الشام عن مصر . ثانيا ضعف الطاقات العسكرية والموارد الحربية للخلافة ، ثالثا وهو اكثر اهمية وجود بيزنطة في جوار شمالي بلاد الشام ، فهذه الامبراطورية لم ترض ابدا بوجود الفاطميين على حدودها ، وحالت بينهم وبين احتلال حلب وشمالي بلاد الشام ، ولقد رغبت بيزنطة بوجود دولة اسلامية صغيرة مستقلة او شبه مستقلة تقف حائلا بينها وبين الخلافة الفاطمية ، وأخيرا لقد قاوم اهالي بلاد الشام مثلهم مثل اهل الجنوب – رغم ان غالبيتهم كانت تدين بالتشيع – محاولات التوسع الفاطمي ، ورفضوا وجود الفاطميين في بلادهم ، وكانوا يبغضون الحكام الفاطميين بسبب السياسة المالية والاقتصادية والادارية للخلفاء والولاة الفاطميين الذين اعتمدوا على العناصر البربرية التي جلبوها معهم من شمالي افريقيا ، ولقد كان بداة شمال بلاد الشام ، كجزء من السكان ملكت قبائله خاصة كلاب قوة

مؤثرة ، لايكرهون ويرفضون الحكم الفاطمي فقط بل كانت لهم مطامحهم الخاصة في اقامة دولة خاصة بهم ، وعندما اقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب ـ كما سنتحدث بعد قليل ـ تحالف مع حسان بن المفرج امير طيء وسنان بن عليان زعيم كلب ، على طرد الفاطميين من الشام ومن ثم اقتسامه بين قبائلهم بحيث تقام دولة طائية في فلسطين مركزها الرملة ودولة كلبية في دمشق وثالثة كلابية في حلب ، ولقد حقق هذا الحلف الثلاثي بعض النجاحات وطرد الفاطميين لفترة من الشام ، ولكن الخلافة الفاطمية استطاعت بعد فترة في سنة ٤١٩ هـ ـ ١٠٢٨ م هزم قوات الحلفاء واعادت سيطرتها على جنوبي بلاد الشام ، ولكن ليس على الشمال .

في الواقع كانت السياسة الفاطمية تجاه بلاد الشام ، وان اتخذت من العقيدة الاسماعيلية لبوسا ، هي في الحقيقة امتدادا للسياسة الخارجية لمصر الاسلامية المستقلة التي سعت دائما للسيطرة على الشام ، ذلك ان مصر كما هو معلوم ليس لها حدود طبيعية مع سورية وقد غزيت دائما عن طريقها لذلك عمل حكام مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ومواجهة الغزاة بعيدا عن ارض مصر . ومعروف أن هذه السياسة التي تبنتها مصر المستقلة في كل أدوارها التاريخية وما حققته من نجاحات قد أثارت الرغبة في اقامة أمبراطورية مصرية تحكم سوريا وغيرها .

ولقد أدى اخفاق الفاطميين في احتلال شمال بلاد الشام بشكل دائم إلى تعديل سياستهم النظرية وإلى تبني واحدة عملية تقنع بالولاء الاسمي في شمال بلاد الشام ، ولكن لا تتساهل مطلقا باستقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان تهديدا مباشرا وخطيرا للوجود الفاطمي كله في مصر ، ويكفي أن نسوق هنا كدليل وصية يعقوب بن كلس أعظم وزراء الدولة الفاطمية ، وهو على فراش الموت ، للعزيز الفاطمي وفيها يقول : «سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة (٦) .

لقد استولى الفاطميون على سواحل جنوبي بلاد الشام ، وكان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان اهمها طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وعكا ، وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ - الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر ، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من انواع «الجمهوريات» المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها عن الأعتراف بالنفوذ الفاطمي ، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحظيرة الفاطمية (٧) .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمرا وأبعد شهرة وأكثر اهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي ابو طالب الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة ، ومن المرجح انه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٩ م وبعد وفاته في سنة ٤٦٤ هـ/١٠٨٢ م ، استبد ابن أخيه جلال الدولة ابو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م ويعد جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس ، وفي عهده ازدهرت طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة . بعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك ابو علي الذي ظل محتفظا بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م (٨) .

وكما ضعف النفوذ الفاطمي في القرن الحادي عشر وانحسر عن مناطق الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، كذلك حصل بالنسبة للنفوذ البيزنطي في بقية مناطق الساحل الشامي ، الفرصة التي استغلها

البعض لاعلان الاستقلال ، كما فعل منصور بن صليحة قاضي جبلة ، وعقب وفاة منصور خلفه ابنه عبيد الله في حكم جبلة ، ودافع عبيد الله عن جبلة ضد آل عمار حكام طرابلس وضد الصليبيين ، واخيرا تنازل عنها الى طغتكين اتابك دمشق وذلك في سنة ٤٩٤ هـ/١١٠١م (٩) .

☆ ☆ ☆

هكذا كانت أوضاع جنوب بلاد الشام وساحله في القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد أما الشمال حيث كانت حلب مركزه فقد حكم معظم الوقت من قبل الدولة المرداسية التي اسسها صالح ابن مرداس أمير قبيلة كلاب ، ومفيد قبل اعطاء تاريخ موجز لهذه الدولة أن نقف قليلا لننظر بشيء من الامعان أكثر مما فعلنا من قبل سابقا الى القاعدة القبلية لهذه الدولة ، هذا وبسبب طبيعة أصل هذه القبيلة ، وبسبب علاقاتها بغيرها من القبائل خاصة في الجزيرة ، فإننا سنضطر هنا الى توسيع هذه النظرة لتشمل الوضع القبلي ليس في شمال الشام فقط بل في الجزيرة أيضا .

كانت قبيلة كلاب قبل قيام الاسلام إحدى مشاهير القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ، وكانت تقطن في منطقة المدينة ، وبعد قيام الأسلام هاجر جزء من كلاب مع من هاجر من القبائل العربية ، وقطن هذا الجزء شواطىء الفرات الشامية (١٠) ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام كما سلف البيان ، لكنه لم يعمل لاقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ،ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أوضاع الخلافة العباسية وقوتها آنذاك ، ثم إلى التأثيرات الحضارية التي لابد وقد أثرت في الكلابيين ، إنما اصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة ، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطها في شبه الجزيرة العربية

والشام والعراق والجزيرة وصل إلى شمالي بلاد الشام واعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي : كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفاجة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها ، حيث أستطاعت بعد امد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها ، وسنتعرض بعد قليل لتاريخ هذه الدولة ، أما نمير فقد أتخذت من منطقة حران والرها ديارا لها ، واتخذت من حران مركزا لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل أسمها الى قلعة جعبر نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقول أبن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفا حال الجزيرة في ايامه :

« وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الاقطار تنتجع لامتيار الملح والاشنان والقلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، أهل خيل وغنم وابل قليلة ، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد واقليم منها ، كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في ايديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها»(١١) .

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع اخوانهم الكلابيون القدماء لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل أن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والأصفر الغازي . كما اكرهت عددا من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية

ويتحدث ابن حوقل عن خروج بني كُبيب «بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ، ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من العصب لعقارهم في نحو عشرة الاف فارس » إلى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم « تنصروا بأجمعهم واوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم» ذكر ابن العديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م كما روى انه في ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وصلت كلاب الى شمالي بلاد الشام ، وبين أن قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سبيعة وذؤيبة قد أغارتا في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م على معرة النعمان وذلك بعد ان نخروا الشام الشمالي

لقد تالفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم ولابد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد اثر عليها فغير من تركيبها ، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها ، فلقد آثر الكلابيون وغيرهم دائما التمزق ولم يدينوا باخلاص لقائد واحد ، ولقد كانت لديهم «مثلهم» الخاصة في الاخلاص السياسي .

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب ، سوى أن بعض الأسماء الشيعية ، مثل علي ، عليان، علوان ،و جعفر قد تبناها بعض افراد هذه القبائل ، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جدا فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والنميريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالأسماء التي عم انتشارها بعد قيام الاسلام خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله(١٢)

استولى في سنة ٣٩٩ هـ /١٠٠٨ م صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (الميادين الحالية في سورية) على الفرات ، وبعدما فعل هذا ، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة(١٣) ولقد كانت الرحبة من اكثر مدن الشام اهمية نظرا لموقعها

الأستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهـذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضا ، ثـم إن البـادية كانت وثيقـة الصلة بها ، وفي البادية اقامت العشائر البدوية التي شـغلت أعظـم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبايجاز لقد كانت الرحبـة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العـربية ، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام واجـزاء من الجزيرة ، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس .

ولقد حافظت الرحبة على اهميتها هذه ومـكانتها حتـى أواخـر القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م حيث حلت محلها مدينة الموصل ، التي كانت احدى كور الجزيرة الثلاث : ديار بـكر وديار مضر وديار ربيعة ، والجزيرة كانت أصلا تشـتمل على البـلاد التـي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسما من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات مـن بـر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها.

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة(١٤ وكانت دائمـا متـورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها ، وقلما كان لها دورها في مشـاكل الشام ، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م عندمـا أزداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغـز مـن اتجـاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهـم نحـو الشام ، وسبب هذا تحولا هاما في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بـالتدريج جزئا من الشام ، وتـورطت في مشـاكله ، وأصـبح الاسـتيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بـلاد الشام وربما على الشام بأسره ، وسـنرى في تـاريخ الدولة العقيلية والدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

وبعدما أحتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو

حلب ، فتورط من اجلهـــا في صراع طـــويل اثمـــر في ســـنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٥ م عن احتلال حلب وإقامة الحكم المرداسي فيهـا . ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام بل إنتـزع بعض اجزاء الساحل الشامي من الفاطميين وساهم في العمـل مـن أجل طرد الفاطيين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قتـل في سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م في معركة الأقحوانة ، في وادي الأردن قرب طبرية(١٥)ومقتل صالح لم يزل من الوجود الدولة التي اقـامها ، فقـد احتفظ اولاده بحكم حلب فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالي وهم : نصر ثم ثمال ثم عطية ، ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمـود بـن نصر ، ثم نصر بن محمود ، واخيرا سابق بن محمـود الذي ســقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـــ / ١٠٦٢ م دخلت أول جمـاعة غزية بلاد الشام وسندرس هذا في الفصـول المقبلة بشـكل مفصـل وسنوضح آثاره وكيف أنه سبب سقوط الدولة المرداسية وعمل على إزالة القوة العربية من الشام .

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية . تطبعت بالأخلاق العربية ، وبالمفهوم العربي البـدوي في الحـكم ، لذلك إزدهـرت في ظـــلالها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسـيين وفي ظلهـم عاش المعري وكتب نثره وشعره ، وكذلك فعل ابن ابي حصـينة الشـاعر وابن سنان الخفاجي الكاتـب الشـاعر ، واخيرا ابـن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م.

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بـالخلافة الفـاطمية سـيئة بشكل عام ، برغم ان المرداسيين قد اعترفوا رسميا بسلطان خليفـة القاهرة ، ولم يكن لهم اية علاقـة ـ حتـى مـا قبـل ١٠٧٠ م ـ بالخلافة العباسية ، ولكن بنفس الوقت الذي اعترف فيه المردا سيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهـم بـالامبرطورية البيزنطية جيدة

بشكل عام ، وغالبا ما وضع الامـراء المردا سـيون انفسـهم تحـت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية

أعتادت بيزنطة أن تقيم دولا على حدودها ، لحماية هـذه الحـدود من غارات البدو بشكل عام ، ولتكون هذه الدول حاجزا بين بيزنطـة وقوى كبرى أخرى . وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حمـاية الدول البدوية التي اقامتها وعلى مسـاندتها بـالمال وغير ذلك مـن الأسباب ، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة . فـلا بـد أن ذلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية !ويعود سبب دفـع المرداسـيين الجزية للامبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفـاطمي الدائم . ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم اخلاص وعدم انقياد لزعيم واحد

لقد عاش مع كلاب في شمال بلاد الشام قبائل أقل شأنا منها وقوة .إنما ينبغي التعرض لها لأن بعضها قد قام بدور سياسي هام ، لقد كان هناك بنو أسد الذين عاشوا في منطقة معرة مصرين ، وجبل السماق ، ونقرة بني أسد بين خناصره والأحص وفي أطراف وادي بطنان كجيران لبني عبس الذين سكنوا هذا الوادي مع حيار بني القعقاع ، ولقد قطن قسم من عبس في حاضر قنسرين ، وفي معرة النعمان عاشت بقايا تنوخ

ويهمنا أكثر من هؤلاء جميعا بنو منقذ الذين سكنوا المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة ، وكان مركزهم بلدة كفر طاب ، وذلك حتى سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م عندما تمكنوا من احتلال قلعة شيزر وخرائب كفر طاب ، ما تزال قائمة وهي على بعد حوالي ٣ كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطريق العام الواصل بين دمشق وحلب . وقد زرت موقع هذه البلدة وشاهدت ما بقي من آثارها .

ولقد كان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور هام في تاريخ الشام في أواخر القرن الخامس هـ/الحادي عشر م ثم في القرن السادس هـ/الثاني عشر م. ومن أشهر رجالات بني منقذ في القرن الحادي عشر علي بن مقلد الذي كان أخا بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب ، وقد قام علي بدور هام في أمور حلب السياسية وفي أمور مدينة طرابلس وكان هو الذي احتل قلعة شيزر وأقام حكم الأسرة المنقذية فيها ، وفي القرن الثاني عشر أسامة بن منقذ الفارس الشاعر صاحب كتاب الاعتبار وغيره من الكتب (١٦) .

كان غالبية سكان بلاد الشام في القرن الخامس هـ -شيعة معظمهم من اتباع المذهب الاثني عشرية ، وكان بين الشيعة بعضا من الاسماعيلية في الشمال والجنوب ، وبعضا من الدروز في شمالي

غربي حلب ، وكان هناك النصيرية في جبل بهـراء – العلويين الآن – وكان السنة يقطنون في المدن الكبرى وكانوا في جنوب بلاد الشام أكثر منهم في الشمال ، وكالعـادة وجـد نزاع حـاد بين الجمـاعات الأسلامية وكان هذا النزاع من الأسباب التـي زادت تجـزؤ بـلاد الشام عمقا وقوته ضعفا ، وبالاضافة للمسلمين وجد في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود ، وكان النصـارى منتشرين في ريف الشام ومدنها الكبـرى ، وكانوا كثـرة مـؤثرة في شمالي البلاد وغربها وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل ارمني ، ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائما سليمة بـل غالبا ما توفرت اسباب الخلاف ووجد النزاع ، إنمـا كانت الحـرية الدينية على العموم متوفرة ، وكانت أحوال النصارى المعاشية جيدة وكانت معظم اعمال الادارة في ايديهـم ، ويمـكننا أن نعـد القـرن الخامس هـ/ الحادي عشر م العصر الذهبي لنصـارى الشام ، ذلك أن قدوم الصليبيين إلى الشام أدى إلى بعض ردات الفعـل العنيفـة ضد النصارى الشاميين (١٧) .

☆ ☆ ☆

لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخـامس وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية ، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات مـن حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين : واحد صغير مثـل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء وأشراف وبعض من شغلوا الوظـائف الدينية من قاضي ومحتسب ، وقسم كبير مثل الجزء الأكبر من الناس وعرف باسم الأحداث ، ولقد قام التعاون والتآلف أحيانا بين هذين القسمين ، ولكن نظرا لطبيعة القسم الأول الخاصة وبالتالي بسـبب مصالحه الذاتية المتميزة فإن دوره كان في الغـالب سـلبيا ، اتسـم بالمداهنة للحكام والاعتدال في المنهج .

وفي التاريخ الاسلامي إذا كان من السهل تصور قيام اتحاد بين أغنياء وتجار وأشراف مدينة ما ، وبالتالي تكوين شريحة إجتماعية وتنظيم جامع ، فإنه لمن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله . والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالبا من الشريحة العليا ونادرا ما أولى المحكومين اهتمامه ، فلقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول .

وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام ، حيث إنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها ، ثم أسباب هذا القيام ، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل واخذ شكله . ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة ، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفتها الأمبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح ، وبتصوري : إن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة ونمت في إطار هذه البلاد ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية الاقتصادية ، ولم يكن لمنظمة الأحداث أية علاقة بمنظمات الأمبراطورية البيزنطية ، فلقد نشط الأحداث أكثر ماذشطوا في حلب ودمشق، وكانت هاتان المدينتان ، وخاصة حلب، مدنا من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين، لأن القدس وأنطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة ، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وأنطاكية وزاد من أهمية دمشق وحلب، ثم إنه ليس من الضرورة أبدا أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الأمم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة، يضاف الى هذا أن بلاد الشام كانت دائما المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح الاسلامي بالمشاكل الدينية التي كانت ناجمة عن

الانقسامات داخل الكنيسة ، علما بأنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة الى وجود منظمات محلية سياسية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الأموي .

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائما ضعيفا ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعديد من المخاطر، وربما لما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بمكنتهم درء هذه المخاطر ، قام بعضهم باذشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثالا موضحا . لهذا : في سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ ـ ٩٠٢ م، أخفق جيش عباسي عداده عشرة الاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة ، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي ووقوعهم تحت الحصار كونوا قوة محلية لم تتول فقط الدفاع عن المدينة ، إنما قامت بهجوم مفاجيء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم وفك الحصار عن حلب .

عقب قيام الدولة العباسية وجعلها من العراق مركزا لها ثم لانشغالها بمشاكل الشرق ، اعتمدت هذه الدولة على النظام الدفاعي في علاقاتها مع بيزنطة ، فاقامت عددا من الحصون والقلاع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي ، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم ، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كان ذا اسس عسكرية تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ومن حسن الحظ انه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه ابو عمرو الطرسوسي

المتوفى في حوالي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م، وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت أخيرا بتحقيقه)•

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفا رائعا مفصلا للحياة العسكرية في الثغور وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس ،كبرى مدن الثغور وأبعدها شهرة: لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم الى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان الى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق انذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر(١٨) .

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب ، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، أن قام أهالي كل مدينة و بلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع ، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لابد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا أعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صبغتها العسكرية ، إلى أن غدت نوعا من « الميليشيا الشعبية »، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ماقبل القرن العاشر لابد وأن جعل الحكام لايتغاضون فقط عن نشاط هذه « الميليشيا » بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاصة، وهذا لابد أيضا قد أثر في تطور منظمة الأحداث وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث مايكفي للتدليل على صحة جميع ماافترضته•

إن الفترة المحصورة مابين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وأواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قد شهدت ذروة نشاط الأحداث ، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل

رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت أجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي، ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم في الحكم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فانهم لم يسمحوا بوجود اي هيئة او تنظيم الى جانبهم، لهذا اصطدموا عندما حاولوا الاستيلاء على جنوبي بلاد الشام بالأحداث ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية افراد منظمة الأحداث، وبرغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام وخاصة في حلب، وعندما قدم السلاجقة الى الشام والحقوه بامبراطوريتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها قاموا بتصفية الأحداث ، لذا عندما جاء الصليبيون الى الشام وجدوه خاليا من جميع القوى والتنظيمات الشعبية المحلية فاستطاعوا انتزاع أجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعيد ان استولى الفاطميون على مصر زحف في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م جيش فاطمي على راسه القائد البربري جعفر ابن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها الى الحكم الفاطمي ولقد لقي هذا الجيش اثناء زحفه في فلسطين مقاومة من الجيوش الاخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الاخشيدي منها، فخلت المدينة « من السلطان، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح »، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن اغلقوا ابوابها ، واوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، واقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء،وحفروا الخنادق.ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد اهالي دمشق ان يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم لولا ان جماعة من التجار والأشراف قامت فشكلت وفدا قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، واخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بأمر الدفاع عن دمشق رجلا من اهلها اسمه ابو

اسحق محمد بن عصودا، وبعدما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عصودا الى الأحساء فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي نحو دمشق فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة. وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم اخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجددا في إثرهم لملاحقتهم ولاعادة جنوب الشام الى حظيرة الخلافة الفاطمية.

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي حاكما على دمشق ، وحاول ظالم العربي الأصل أخذ دمشق بالحديد والنار فأوقع الحرائق بعدة اماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيرا تم الوصول الى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة ، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلا مؤقتا وغير ناجع، إذ حالما عادت الاضطرابات الى دمشق ، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم الى دمشق لحل مشاكلها فقام هذا بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق ، وهكذا تم الوصول الى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق الذين أحكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الآونة عاميا عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث أو مكان ثكنتهم .

حدثت في هذه الآونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد أدت الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ / ٩٤٦ ـ ٣٦٣ / ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع ودفع هذا بعض العسكريين الأتراك الى القيام بهجر بغداد. وكان من بين هؤلاء البتكين الحاجب، الذي ترك

العراق وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه شيوخ المدينة واشرافها فرحبوا به، وسألوه الاقامة عندهم، والنظر في احوالهم ، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم ". وقبل البكتين العرض ودخل دمشق فرتب امورها، إنما بالاتفاق مع الأحداث الذين كانت علاقته بهم جيدة ولم تتأثر اوضاعهم بدخوله دمشق ولم يضعف نفوذهم بها، لأنه اهتم بالمشاكل الخارجية وترك أمور المدينة الداخلية لزعماء الأحداث ومقدميهم، وكان أكبر هؤلاء رجل عرف باسم قسام التراب، وقسام هذا كان أصله من احدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق وكان يعمل في التراب، ثم انضم الى الأحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل فيهم.

وهكذا سارت أمور دمشق بشكل جيد لكن الخلافة الفاطمية ماكانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قد يسبب لها من مشاكل ، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بإمرة جوهر الصقلبي فاتح مصر ، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن ، واخفق جوهر واستطاع البكتين صد الفاطميين وهزمهم في أكثر من معركة، مما اضطر العزيز الى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بالبكتين، وأخذه اسيرا وعاد به الى مصر في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م. لكن ماحل بالبكتين لم يؤد الى سقوط دمشق ، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام واحداثه بأمورها فضبطوها ضبطا جيدا، وكاجراء احتياطي قام قسام بمراسلة الخليفة العزيز فاعترف اسميا بسلطانه، ودافعه عن دمشق، وتظاهر العزيز بالرضى، إلا أنه قام في السنة التالية ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م بارسال جيش قوامه اربعة الاف مقاتل من اجل استعادة دمشق ، وقدم هذا الجيش نحو دمشق ، لكنه اخفق في دخولها، واضطر الى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام واحداثه أن لايسلموا البلاد لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين، ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م، حين جهز جيش فاطمي جديد لاعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعد ما اخفقت محاولات

أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، وإثارة الأعراب ضدها في اسقاط حكم قسام.

ووصل الجيش الفاطمي إلى اسوار دمشق، وأخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام وأحداثه، وفي ذروة المعركة قام اشراف وأثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتثبيط الناس عن قسام ، و ضغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطميين على شرط الأمان له ولأصحابه، و هكذا فتحت دمشق أبوابها، ودخلت القوات الفاطمية وأخذت بمقاليد الأمور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي وطردوه من مدينتهم.

ويبدو ان مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها، ففي صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح ايضا بالفاطميين وطردهم من صور، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة ، حيث جهزت قواتها البرية والبحرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الاسطول الفاطمي أخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة وأخذه اسيرا، حيث تم حمله الى القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة، ولانعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما أنه ليس لدينا مايشير الى ان هناك صلات وتعاون وتنسيق بين أحداث مدن بلاد الشام.

ويبدو أن هذه الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد أثرت على معنويات أحداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي الى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضي الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة

وعسكر خارجها، وأخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق واحداثها وارسلت القاهرة واليا جديدا لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الاجشيدي الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م، لكنه لم يدخلها بل اقام خارجها في إحدى قراها، واخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا الآن اثنا عشر رجلا، على راسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائما الى ولائمه حتى اطمأنوا له، ووثقوا به.وفي شتاء هذا العام دعا بشارة مقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم الى وليمة، وكان بالوقت نفسه قد اعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حيا من احياء المدينة كي يبطش به وباهله ، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من اجل غسل ايديهم ، أغلقت عليهم الأبواب ، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها(١٩) حيث تكرر وقوع مايشابهها مرارا في تاريخ الاسلام • سواء حين جرى ذبح الأمويين من قبل العباسيين او أخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة•

لقد كانت ضربة مروعة قضت على احداث دمشق واخمدتهم ، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى انتزعها اتسز الزعيم التركماني كما سيمر معنا بالتفصيل ، وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري• وإن وجود حكم مكرو ممع حامية شبه اجنبية ، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من اسباب تعثر دمشق واخذها دورا سلبيا في بداية تاريخ الحروب الصليبية ، وهذه مسالة ستنال حظا أوفى من البحث في المستقبل ، على اننا إذا ماتركنا جنوب بلاد الشام وتوجهنا نحو شماله ، نجد الأحداث يشغلون في حلب دورا هاما جدا، فالأحداث هم الذين ساعدوا صالح بن مرداس على الاستيلاء على حلب ، وكانوا إذا ماقام صراع بين اميرين من آل مرداس انتصر الذي ساندوه، ولقد وقف الأحداث من التركمان موقف المعادي، وسيمر معنا بالتفصيل ما قاموا به من اعمال

ضدهم، ثم كيف أن قيام أول حكم تركماني في حلب قد أذن بانتهاء وجودهم ونفوذهم فيها.

لقد كان الأحداث يتقاضون أحيانا بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية ، يسهرون على الأمن ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة (٢٠) .

إن القضاء على الاحداث في بلاد الشام يمكننا من الاجابة على احدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمرانية ، فلو نظرنا الى مدن الشام وخطط البناء الفوضوي بها ثم تطور عمران هذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية باحدى مدن أوربة لشاهدنا فوارق ضخمة، وحين نبحث عن السبب نجد أن المدينة الأوربية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية ونجد أن هذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في اوربة واشرفت عليه كانت معدومة حتى أواخر القرن الماضي في بلاد الشام.

إن القضاء على الاحداث وإزالتهم من مدن الشام قد حرم هذه المدن من هيئة اجتماعية كان ـ ربما لو كتب لها الحياة والاستمرار ـ وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالف لما عليه الآن بشكل كبير.

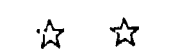

حكمت الجزيرة في اوائل القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل ، وايام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل الى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما أسلفنا الحديث ، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية، واخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية .

استولى في سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل الى املاكه وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبو طاهر بن ناصر الدولة الحمداني (٢١) واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب ، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها واقامة الدولة العقيلية فيها(٢٢). وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م (٢٣) وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين سجنه أخوه بركة.وحكم بركة قرابة السنة، ثم توفي ، وهنا أجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران اميرا جديدا، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله.

ولقد كان قرواش بن المقلد من أعظم شخصيات عصره البدوية ، فقد كان اديبا شاعرا، نهابا وهابا على دين الأعراب وجاهليتهم، وقد جمع بين أختين في الزواج، فلامته العرب على ذلك لأنه محرم بالاسلام ، فقال لهم:« خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة، وكان يقول في مجالسه : ماعلى رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله ». وقد استطاع قرواش ان يقيم علاقات شبه متوازية بين الخلافتين العباسية والفاطمية(٢٤) وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لاول غارة غزية،الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل.

حكم قريش بن بدران حتى سنة ٤٥١هـ / ١٠٦١ م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه ابراهيم في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ولم يطل حكم ابراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع إمارة الموصل ولدا اخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى ازال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائيا في سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م .

ان تاريخ الدولة العقيلية منذ ان استلم امارتها قريش بن بدران حتى يوم سقوطها هو جزء من تاريخ هجرة التركمان الى الجزيرة والشام ، جزء من الصراع العربي السلجوقي للسيادة على هذين البلدين . ولكن قبل ان نأخذ في دراسة هذا الصراع علينا ان نكمل حديثنا عن الوضع السياسي في الجزيرة .

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة الى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية ، فلقد سكنت المناطق الواقعة شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالبا ماكانت هذه القبائل تغير على الاراضي البيزنطية . ولقد ظهر بين افرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـ/ العاشر م ، ولقد استغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م) فأخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على اهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ونصيبين وميافارقين « ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الاطراف » واثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من اهمها واحدة في سنة ٣٨٠ هـ./ ٩٩٠ م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية (٣٥) .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن اخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م ، وفي زمن حسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر ، وبعيد مقتله خلفه اخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة ، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م وهنا خلفه احمد الذي عرف باسم نصر الدولة .

ويعد نصر الدولة المرواني من اشهر حكام الاسرة المروانية ، وقد

استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاما ، استطاع خلالها ان يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي ان يبسط نفوذها حتى على بعض من اجزاء جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفياتي) ، ولقد احسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الاسلامي من جهة وبلاد الشام والاناضول من جهة اخرى .

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادية قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كانت هي الحال مع الامبراطورية البيزنطية، وايضامع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة مع أن آل مروان كانوا سنة وكانت رعيتهم على العموم شوافع.

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر او المستمر مع عقيلي الموصل فتنازل لهم سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م عن مدينة نصيبين كما دفع لهم الجزية لفترة من الزمن . وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الأخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير اصحاب قلعة جعبر، وقبيلة نمير أصحاب حران ، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من آثار مضار هجرة التركمان على بلاده ، فقام بمراسلة طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة واقام الخطبة باسمه.

وكانت آمد وميا فارقين وحصن كيفا اشهر بلدان الدولة المروانية، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهارا كبيرا ، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاة الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح واصول عربية واسلامية.

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م قسمت اراضي دولته ـ كما سيمر معنا ـ بين اولاده ، وبدات قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف واستمرت آخذة بالاضمحلال شيئا فشيئا حتى تمكن السلاجقة اخيرا من القضاء عليها نهائيا سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م(٢٦) .

☆ ☆ ☆

لقد اتينا في الفصل المتقدم على ذكر التركمان العراقية، كما ذكرنا أن السلاجقة قد فوضوا لطغرلبك ـ بعد نصرهم على مسعود ـ امر الوصول الى بغداد ،وان طغرلبك عمل على تأمين الطريق الى بغداد والطريق الى ارمينية، وعندما نجح طغرلبك في تأمين هذه السبل أخذت جموع التركمان تتدفق باتجاه العراق وباتجاه ارمينية ، وقد ضغط هذا التدفق على التركمان العراقية ودفعهم نحو الولوج الى ارمينية والتفتيش على مواطن واراضي جديدة ، لهذا توجه بعضهم نحو الجزيرة إما للاستقرار بها او للذهاب منها نحو الشام ، ويقول ابن الاثير :« في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ ـ ١٠٤٢م) فارق الغز اذربيجان ، وسبب ذلك ان ابراهيم ينال ـ وهو أخو طغرلبك ـ سار الى الري، فلما سمع الغز الذين بها خبره اجفلوا من بين يديه ، وفارقوا بلاد الجبل خوفا، وقصدوا اذربيجان، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا بأهلها، ولأن ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه... فأخذوا بعض الاكراد وعرفهم الطريق ، فأخذ بهم في جبال وعرة ... وخرجوا الى جزيرة ابن عمر »، ويذكر ابن العميد ان عدد هؤلاء الغز كان « الفا وستمائة وخمسون فارسا ومعهم اربعة امراء »، وعندما وصلوا الى الجزيرة اتصلت بهم الدولة المروانية وتم بينها وبينهم الاتفاق « في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة الى ان ينكشف الشتاء، ويسير...الغز الى الشام »، لكن المروانيين حاولوا الغدر بالغز ، ونجحوا فقط في اسر احد مقدميهم واسمه منصور ، وهنا تفرق الغز في انحاء الجزيرة مغيرين على املاك المروانيين واراضي العقيليين ، وتجمعت قوات عقيلية عربية مع قوات كردية مروانية ضد الغز واشتبكت معهم في معركة انجلت عن نصر الغز،

فازداد عيثهم في الجزيرة ، وتوجهت القبائل العربية البدوية نحو العراق كي تشتوا به« فأخربت الغز ديار بكر ونهبوا وقتلوا ، فأخذ نصر الدولة منصورا أمير الغز...وراسل الغز وبذل لهم مالا واطلاق منصور ليفارقوا عمله، فأجابوه، فأطلق منصورا وارسل بعض المال.

فغدروا وزادوا في الشر، وسار بعضهم الى نصيبين وسنجار والخابور فنهبوا ... فدخل قرواش الموصل خوفا منهم »، ويبدو من حديث للعظيمي حول هذه الحادثة ان حكم قرواش لم يكن شعبيا في الموصل وان بعضا من اهالي الموصل قد راسلوا الغز وشجعوهم على غزو الموصل وامتلاكها:« فلما راوا ذلك تقدموا الى الموصل فأرسل اليهم يستعطفهم ويلين لهم ، وبذل لهم ثلاثة الاف دينار ، فلم يقبلوا فأعاد مراسلتهم ثانية، فطلبوا خمسة عشر الف دينار، فالتزمها. واحضر اهل البلاد ، واعلمهم الحال، فبينما هم بجمع المال وصل الغز الى الموصل ونزلوا بالحصبا ، فخرج اليهم قرواش واجناده والعامة . فقاتلوهم عامة نهارهم، وادركهم الليل ، فافترقوا.

فلما كان الغد عادوا الى القتال ، فانهزمت العرب واهل البلد ، وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره ، وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير ، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيرا منه ، ونهبوا جميع ما لقرواش من مال وجوهر ، وحلي وثياب واثاث ونجا قرواش في السفينة ، ومعه نفر، فوصل الى السن واقام بها ، وارسل الى دبيس ابن مزيد والى غيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ويشكو مانزل به ، وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتال ، وهتك الحريم ونهب المال ... فلما استقروا فيها قسطوا على اهلها عشرين الف دينار واخذوها، ثم تتبعوا الناس، واخذوا كثيرا من اموالهم بحجة اموال العرب، ثم قسطوا اربعة الاف دينار اخرى »، وهنا لم يعد باستطاعة اهالي الموصل التحمل اكثر فثاروا بالغز فقتلوا بعضا منهم وقذفوا ببعضهم الآخر خارج مدينتهم ، وعندما حصل هذا جمع الغز جموعهم التي كانت متوزعة في الجزيرة ، ودخلوا الموصل عنوة « ووضعوا السيف في اهله ، واسروا كثيرا ، ونهبوا الأموال واقاموا على ذلك اثني عشر يوما يقتلون وينهبون وبقي القتلى في الطريق فأنتنوا لعدم من يواريهم » وطال هذا

الحال بالموصل اكثر من عامين»، وهنا كتب جلال الدولة البويهي الى طغرلبك حول هذا البلاء وكتب اليه نصر الدولة المرواني يشكو اليه منهم ، فأجاب طغرلبك بالاعتذار ووعد بالعمل على طردهم وملاحقتهم حتى تنتهي اذيتهم وقال في صدد ذلك:« إن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيدا وخدما ورعايا وتبعا يمتثلون الأمر ويخدمون الباب ، ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين، وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم ، انحازوا الى الري فعاثوا فيها وأفسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين انهم يلجئون الى الامان، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتهم الهيبة ، وزحزحتهم الحشمة ولابد أن نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين ، قربوا ام بعدوا ، أغاروا أم انجدوا »٠

في هذه الآونة كان قرواش قد تمكن أخيرا من جمع جيش عربي من قبيلة عقيل وامده ال مزيد وحكام اسفل وادي الرافدين وعشائرها العربية ، فتوجه نحو الموصل ، فانسحب الغز منها وجمعوا جموعهم المتفرقة في الجزيرة ، ويبدو ان هذه الجموع كان قد زاد عددها الى درجة كبيرة حتى ان ابن الأثير يروي بانهم اصبحوا — نيفا وثلاثين الفا — واشتبكت القوات العربية بالغز«فاستظهرت الغز ، وانهزمت العرب حتى صار القتال عند حللهم ، ونساؤهم يشاهدن القتال ، فلم يزل الظفر للغز الى الظهر، ثم انزل الله نصره على العرب،وانهزمت الغز واخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وقتل ثلاثة من مقدميهم ،وملك العرب حلل الغز وخركاواتهم وغنموا أموالهم » ٠ ولوحق الغز في الجزيرة حتى اضطر من نجا منهم الى الهرب نحو الأراضي الارمينية او الأراضي البيزنطية(٢٧) وسيمر ما يزيد على العشر سنوات قبل ان تطرق الجزيرة مرة أخرى من قبل جماعة كبيرة من الغز،وسيكون الذين سيطرقون اراضي الموصل من اتباع طغرلبك وذلك أثناء دخول طغرلبك بغداد وسعيه من أجل اقامة الامبراطورية السلجوقية المتحكمة بالخلافة العباسية ، والوارثة للاسرة البويهية٠

☆ ☆ ☆

كانت بغداد مع خليفتها في هذه الآونة تحت سلطان أمير الأمراء البويهي وكان اسمه ابو كاليجار، وكان أبو كاليجار هذا قد وقع تحت تأثير الدعاية الفاطمية الاسماعيلية بعد أن اتصل به المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، ولاعتبارات كثيرة اضطر ابو كاليجار الى نفي المؤيد في الدين الى ماوراء الفرات حيث تابع سيره نحو القاهرة

وفي سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م ـ بعدما توفي ابو كاليجار ـ خلفه في إمرة الأمراء في بغداد أكبر اولاده ابو نصر خسرو الذي حصل من الخليفة القائم على لقب الملك الرحيم ، ولم يصف الحال للملك الرحيم ونازعه سلطانه في كرمان اخوه فولاستون وفي البصرة اخوه ابو علي [٣](٢٨) ولايهمنا هنا التبسط بالحديث عن نزاعات البيت البويهي هذه إنما مايهمنا هو أن نلتفت نحو بغداد كي ندرس أحوالها والأسباب التي أدت الى مجيء طغرلبك اليها ، ومن ثم إزالته للدولة البويهية واقامته السلطنة السلجوقية .

من الناحية السياسية لم تكن السلطة في بغداد والمناطق التابعة لها والمحكومة من قبلها مباشرة في يد أمير الأمراء البويهي فقط او في يد الخليفة ، بل وجد في بغداد عدة قوى تصارعت على السلطة فيها، ويمكن ـ على العموم ـ تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد الى قوتين رئيسيتين ، واحدة عسكرية والأخرى مدنية ، ولقد مثل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري ، ومثل الجانب المدني ابن المسلمة وزير الخليفة القائم ، ولقد كان البساسيري شيعيا من الاثني عشرية وكان ابن المسلمة سنيا حنبليا ، وهكذا أيضا كان أهل بغداد مقسمين بين شيعة اكثرهم اثني عشرية وسنة اغلبهم حنابلة.

والبساسيري هو ابو الحارث ارسلان التركي ، نسب الى بسا بلدة بفارس « والعرب تسميها فسا، وينسبون اليها فسوي، وأهل فارس يقولون بسابين الباء والفاء وينسبون اليها البساسيري، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة »، ولقد بدأ البساسيري حياته كعبد تركي في خدمة الحاكم

البويهي بهاء الدولة فيروز (٣٨٨ ـ ٤٠٣ هـ / ٩٩٨ ـ ١٠١٢ م) وتدرجت به المناصب حتى اصبح ـ ربما ـ في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٣٣ م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م كان قد اصبح من كبار شخصيات بغداد وهكذا ومع الأيام « عظم شأنه واستفحل أمره ، وقويت هيبته وانتشر ذكره »•

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة البساسيري ترتفع وسلطته تقوى قام الخليفة القائم بتعيين رئيس الرؤساء ابو القاسم بن المسلمة كاتبا له، وكان هذا سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م،وكان ابن المسلمة « عنده ـ أي القائم ـ في منزلة عالية »، وفي السنة التالية « خلع الخليفة علي ابي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء » وكان طبيعيا أن يمارس ابن المسلمة سلطاته ويشارك ـ إن لم يأمر ـ البساسيري، ولاختلاف طبيعة الرجلين وطبيعة منصبيهما وعقائدهما ثم لكونهما من أصحاب المطامح والأهواء كان لابد من حصول اصطدام بينهما ، خاصة وأن الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلتا الى درجة من الضعف عجزتا فيه عن ان تقيما توازنا بين الطرفين او تسخرهما حسب مصلحة الدولة، ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والبساسيري ، الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد ، فقد كانت هناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة ، ثم من جهة اخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرلبك السني•

واثناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية : اتهم البساسيري ابن المسلمة بالاتصال بطغرلبك والعمل لجلبه لبغداد، وهذا طبعا كان يعني الخروج عن السلطة البويهية وخيانتها ، واتهم ابن المسلمة بدوره البساسيري باتصاله بالقاهرة سرا والتمهيد للاطاحة بالخلافة العباسية ، وفي اثناء ازمة الصراع هذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين ، فتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل ، لما ملكه

من قوة ، ولما تمتع موقع الموصل بـه مـن اهمية ، ذلك ان اي عمـل فاطمي ضد بغداد كان بامكان الموصل اضعافه إن لم يكن إحبـاطه ، واخذ البساسيري يسعى لايجاد حلفاء لنفسه ، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمهما دبيس بن علي بن مزيد .

وفي شعبان سنة ٤٤٦ هـ/تشرين ثـاني ١٠٥٤ م« حصر الأمير ابو المعالي قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحهـا ، وخطب لطغرلبك فيها وفي سائر أعمـاله، ونهـب مـا كان فيهـا للبساسيري وغيره ، ونهب حلل اصحابه بالخالص وفتحوا بثـوقه ، فامتعض البساسيري من ذلك »، وفي رمضان من السنة ذاتها قـدم بعض من أصحاب قريش الى بغداد فانزعج البساسيري مـن ذلك ، وقال :«هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل اصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق واسرفوا في اهلاك الناس ، واراد اخذهم ، فلم يمكن منهم ».

وبدا البسايري ينتقم ويعد العدة للتخلص من ابن المسلمة وللتفرد بالتحكم في بغداد ، فكان أول ماقام به أن احتجز سفينة كانت لأحـد اقرباء ابن المسلمة ثم قام بعد فترة وجيزة بـاسقاط « مشـاهرات الخليفة ــ اي رواتبه ــ من دار الضرب ــ اي مركز الخـزانة وكذلك مشاهرات الرؤساء وحواشي الدار ».

وبالطبع لم يقف ابن المسـلمة مـكتوف اليدين تجـاه تصرفـات البساسيري هذه، ولم يلق سلاحه بل تابع صراعه معه ، ففي السـنة التالية ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ م سافر البساسيري الى واسط ، فاستغل ابن المسلمة تغيبه عن بغداد وبدأ يعمل على اثارة اهالي بغداد السنة وسواهم ضده ، وقام « جماعة من اهل السـنة ، واظهـروا الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحضروا الديوان وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك وأن يتقدم الى اصحاب الديوان بمسـاعدتهم ، فـأجيبوا الى ذلك »، واخذت هذه اللجنة تمارس عملها ، وصدف « ان ابـا سـعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جـرة خمـرا ليحدرها الى البساسيري بواسط »، وسمع جماعة الامر بـالمعروف

والنهي عن المنكر بهذا فتوجهوا فورا في مظاهرة كبيرة مثيرة نحو السفينة ، فكسروا جرار الخمر ، وبصرف النظر عن إراقة ٦٠٠ جرة من الخمر كانت تكلف مبلغا كبيرا من المال وتحبط الكثير من مشاريع الطرب والمتعة، فان هذه الحادثة قد اضرت بالبساسيري وزادت سمعته سوءا،وزادت شقة الخلاف بينه وبين ابن المسلمة اتساعا ، ولم يكتف ابن المسلمة بهذا القدر بل اخذ يعمل على اثارة الجند ضد البساسيري واخذ يتدخل في شؤون العساكر ـ رغم كونه رجلا مدنيا ـ ، فقد اغتنم تأخر وصول بعض ارزاق حامية بغداد ، فنسب ذلك الى عمل متعمد من البساسيري ، واخبر وفدا من الجند جاء يشكو اليه ان البساسيري هو السبب في ذلك وانه هو الذي يقف وراء مشاكلهم التي يعانون منها ، وقال لهم : إن اموالكم قد اخذها الباسيري وهي محجوزة في داره ، واذا اردتم اخذها فنحن معكم ، فطمع الجند « واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها ، فأذن لهم في ذلك ، فقصدوها ونهبوها واحرقوها ، ونكلوا بنسائه واهله ونوابه ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد».

وفي هذا الجو المشحون عزم ابن المسلمة على توجيه ضربته القاضية ضد البساسيري ، فأطلق « لسانه في البساسيري وذمه ونسبه الى مكاتبة المستنصر صاحب مصر » وذلك امام الخليفة القائم ، و« صح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيري عرفهم ـ وهو اذ ذاك بواسط ـ عزمه على نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن مكيال المعروف بطغر لبك أمير الغز ، وهو بنواحي الري ، يستنهضه على المسير الى العراق »، « وأرسل الى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيري فأبعده »، « وانفض أكثر من كان مع البساسبري ، وعادوا الى بغداد ... ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة » ،« واقبل ... طغر لبك في مائة الف وعشرين الفا من الترك والغز والأعاجم والكرد والديلم وغيرهم من الأجناس فوصل بغداد وهاجمها وقتل منها خلقا عظيما ونهبها » « ولم يترك الترك وردا الا شفهوه ، ولاحسنا الا شوهوه ولانارا الا ارشموها ، ولادارا

الا شعثوها ، ولاعصمة الا رفعوها ، ولاوصمة الا وضعوها»، وكان دخول طغر لبك بغداد في أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ / أواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥ م وفر جند بغداد الترك والديلم منها ، وتلاحق خلق كثير بالبساسيري في الرحبة (٢٩).

عندما لحق البساسيري بالرحبة « لقيه معز الدولة ـ يعني ثمال ابن صالح ـ (أمير حلب الذي كانت الرحبة احدى بلدان امارته) وأكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد وصل في قلة » ، ولم يكن اختيار البساسيري لبلدة الرحبة قد تم عن عبث ، فقد كان بامكانه البقاء في العراق في بلاد « نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما» لكنه آثر المضي الى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها ، ومن الرحبة اتصل ـ او ربما جدد اتصالاته ـ البساسيري بالخلافة الفاطمية في القاهرة ، ووعد الخليفة المستنصر أنه اذا أرسل اليه مالا كافيا ، فسيقوم بطرد الغز من العراق وبازالة الخلافة العباسية واحلال الدعوة الفاطمية مكانها ، ويذكر المقريزي أن البساسيري قد طلب من الخليفة المستنصر أن يسمح له بالقدوم الى القاهرة لشرح خططه ، لكن أشير على الخليفة المستنصر رفض طلبه هذا ، كما أشار رجال دولته عليه أن يرسل اليه الأموال اللازمة ، وفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م « جهز الوزير اليازوري خزائن الأموال على يد المؤيد في الدين لأبي الحارث البساسيري ، بحيث لم يبق في بيوت الأموال بالقصر شيئا الا أخذ لفتح بغداد ». ويذكر المقريزي بأن ٢٠٠٠ر٣٠٠ر٢ من الدنانير هو قيمة ما جهز للبساسيري وأرسل اليه من عين ومتاع ، ولنستمع الى المؤيد بالدين يصف رحلته من القاهرة الى حلب :« وسرت في جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البالغين والحمالين عسكر لو لم يمسني غير عذابهم عذابا لكان فيه مايغني ويكفي ، وكان الناس يتعجبون من أمري ، وقد كان موضع العجب لعمري كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتي من دون أن يتبعني من شيء يسمى العسكر اثنان ... فكان

فيما مثل لي انني استتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح وأبلغ بهم الى الرحبة ، فكنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق ارتأي في هذا الباب ، فحدثتني نفسي بمنافاته للصواب ، فلما وصلت الى صور واجتمعت مع ابن عقيل ، وجرى بيني وبينه الحديث في مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأي مثل ما عندي ، ووجدت قصده في التدبير ، بغير ذلك التدبير ، قصدي ، وبلغت الى دمشق ، وعرضته على والي الموضع اخذا بفضل الاستظهار ، فلم يكن الراي واقعا موقع الاختيار ، فحينئذ كاتبت ابن صالح اشعره بالنصبة التي انا مامور بها ، وذكرت انني متوقف عنها تصونا من ان اوطىء اقدام خصومه بلاده ، وامتطي مطية امر ربما ضمن فساده ، واقول له : هل لك في خدمة سلطانك بما يكشف عن اخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشي عيناك وسن الامان والامن ، وذلك اني اسلم نفسي وهذه الاموال والخزائن كلها اليك ، ولا استظهر الا بمروتك وانسانيتك في حفظي وحفظها عليك ... وكتبت الى الوزير اذكر توجهي الى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين احدا ، وان العدول عن نصبة ما مثل من استصحابهم اقرب الى الصواب رشدا ، فقامت قيامته في هذا الباب ، وكاتبني يحذرني من تبديل قوله وتعدي حده ورسمه ، فلم يجد كلامه مني اذنا سميعة ولا نفسا مطيعة » ، « وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بيني وبين الوزير نهيا عن المسير الى ابن صالح على غير المثالة التي مثلها ، وابداء مني له وامتناعا عنه ... وسرت بما صحبني من الاموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وانا على تخوف مما ينتهي الحال اليه اخشى اكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول ترك وتركمان ، فلا ادري بأيهما انا اكثر فرحا بالسقيفة ام بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار

وتواعدنا انا وابن صالح على ان يلقاني الى موضع يلي حمص يقال له الروستان (الرستن) على جسر نهر العاصي ، فما زلت اسير عن دمشق مرحلة ، وهو يسير عن حلب مرحلة ، ومعي صليبة

عسكر الشام ، ومعه جمهرة بني كلاب الى ان التقت الفئتان منا ومنهم في المكان المذكور ، فضرب عسكرنا مصافهم على شاطىء الوادي من العدوة الغربية ، ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية ، وكان الموقف موقفا عجيبا حسنا ، والناس يظنون الظنون ، ويحسبون حساب ماكان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والاموال والسلاح امامي وسرت في اعقابها على هون وسكينة ووقار ، وسكون ، وابيت ان يمشي بين يدي الا اثنان من الشاكرية (الدرافقين) لايحملون باياديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهي ، والقيت عليه السلام في نفسي ، وما يشتمل عليه صحبي ..

ومن الرستن انطلق موكب ثمال بن صالح برفقته المؤيد في الدين ، انطلق هذا الموكب شمالا نحو حلب ، وعند وصوله الى معرة النعمان التقاهم وفد من رجالات البساسيري ومن جنده ، فطلب منهم المؤيد التوجه الى الرحبة لاخبار سيدهم بوصول الامداد ، وما ان وصل المؤيد الى حلب حتى بدا نشاطاته في تأليب جميع حكام وامراء الجزيرة ضد التركمان وتجميع قواهم الى صف قوى البساسيري ، فراسل نصر الدولة المرواني ، وراسل مانع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران وامير قبيلة نمير ، وبعد هذا انحدر الى الرحبة وبرفقته ثمال بن صالح وجموع قبيلة كلاب ، وفي الرحبة التقى المؤيد بالبساسيري واوصل اليه كل ما جلبه من القاهرة ، وهنا اخذ البساسيري بمساعدة المؤيد في تجنيد جيش من العرب البدو والكرد والديلم مع اتراك بغداد ، ويذكر المؤرخ العظيمي ان الجيش الذي جمعه البساسيري قد بلغ خمسين الفا ، وعوضا عن ان يعبر هذا الجيش الفرات نحو العراق فقد لزم شاطىء الفرات مصعدا شمالا ، وبدأت هذه القوات بالضغط على ثمال بن صالح واخذت بتهديده ، فسلم ثمال الى البساسيري بلدة الرحبة وتنازل له عنها ، فاتخذها البساسيرى مقرا وجعل فيها ماله واهله .

ويتساءل المرء هنا لماذا قبل ثمال بن صالح بالبساسيري وسمح له بالدخول الى اراضيه ، ثم لماذا قام بعد ذلك باستقبال المؤيد في

الدين ورافقه الى الرحبة ؟ او لم يرى ثمال في حركة البساسيري تهديدا لوجوده ودولته ؟ يبدو ان ثمال الذي كان بدويا من قبيلة كلاب قد راى في حركة البساسيري ضمانا لحكمه وعونا لدولته ضد الخطر التركماني ، وهذا يعطي تعليلا لما رواه ابن العديم من ان بعض رجالات بني كلاب قد ارادوا القاء القبض على البساسيري عندما جاء الرحبة فارا من العراق فمنعهم ثمال من ذلك ، ولكن لماذا اراد الكلابيون القاء القبض على البساسيري ، هل لمسوا فيه خطرا على سلطانهم ، ام انهم ارادوا القبض عليه باعتباره شخصية سياسية هامة يمكن بيعها للخلافة في بغداد او لطغر لبك بمبلغ كبير ؟ لعل هذا هو السبب وان الكلابيين ارادو تحصيل مبلغ من بغداد ، فان لم يكن منها فمن القاهرة التي كان يمكن ان تساوم على حياة البساسيري . يضاف الى كل هذا ان كون ثمال كان شيعيا وحركة البساسيري كانت شيعية ضد التركمان السنة يمكن ان يكون من الاسباب الهامة التي دفعت بثمال للتورط في الثورة واعمالها .

تابع المؤيد في الدين نشاطه واتصالاته ، فكاتب دبيس بن مزيد امير بني اسد الذي كان قد سافر الى بغداد ، وحاول ان يقيم تسوية مع طغر لبك ، ذلك انه كان يخشى تجريك طغر لبك وتركمانه باتجاه الشام ، لان مثل هذا التحرك كان سيسبب الكثير من المضار ولقد اقنع المؤيد في الدين دبيس بالتخلي عن اتصالاته بطغر لبك وبان ينضم الى معسكر البساسيري . وفي الوقت نفسه انضم بعض امراء عقيل ، وخاصة مقلد ـ الاخ الاصغر لقريش ـ بن بدران ، الى معسكر البساسيري ، والذي دفعهم الى هذا هو خصوماتهم مع قريش الذي اعترف الان بسلطان طغر لبك ، متابعا بذلك السير على محور تحالفه القديم مع ابن المسلمة ، والتصدع الذي اصاب صفوف قبيلة عقيل قد اضعف من مركز قريش واثر على قوته ، خاصة وان العقيليين تابعوا التخلي عنه والانخراط في معسكر البساسيري حيث وجدوا اموالا طائلة وجوائز ثمينة ، وامالا زاهية في مغانم كثيرة ستاتي عند اخذ بغداد ونهب دار الخلافة (٣٠).

يقدم لنا المؤيد في الدين في سيرته لنفسه وصفا مفصلا لكل الحوادث التي وقعت في أراضي الدولة المرداسية أثناء ثورة البساسيري وبزهد شاذ وصوفية غريبة كتب المؤيد رواياته ، فلقد حرص دائما أن يظهر أنه هو ولا أحد سواه كان وراء كل حادث ، وأنه فعل كل شيء بدون تكلف أو مشقة بل كل ما حصل كان بسبب التوفيق الرباني لمبعوث الامام الذي أكرمه بكرامة صنع المعجزات ، كما ألان لذبيه داود الحديد ، ونظرا لهذا الشذوذ وهذه البساطة والسذاجة المتكلفة ينبغي أخذ روايات المؤيد بعين الحذر ومعارضتها على سواها من الروايات قبل قبولها .

بعد أن أكره ثمال بن صالح على التنازل عن الرحبة للبساسيري أكره مرة أخرى على التخلي عن مدينة الرقة لمانع بن شبيب بن وثاب أمير نمير ولقد أغضب هذا التنازل قبيلة كلاب وسبب بعض التصدع بين صفوفها تصدعا سيتطور الى انشقاق القبيلة وتصارعها مما سيؤدي الى إزالة الحكم المرداسي وقطعه مؤقتا من حلب.

بعد ما دخل طغرلبك بغداد القى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية ، ونفاه الى حيث لقي حتفه ، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود ، وقام مكانها السلطنة السلجوقية ، لكن اركان هذه السلطنة ماكانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري ، لهذا تقدم الخليفة في سلخ ربيع الأول ٤٤٨ هـ/١٨ حزيران ١٠٥٦ م «الى السلطان بالمسير الى الشام ، ويبدأ بالرحبة ، ويأخذ البساسيري ، ويعبر الفرات ويقيم الدعوة على منابر الاسلام ، فأمر السلطان العساكر بأن يتجهزوا ويبعثوا ليحضروا خركاواتهم وأولادهم واهلهم يكونوا بالعراق ويتوجهوا معه الى الشام ، فقالوا: هذه بلاد خربة وليس بها اقوات ولا علوفات ، ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا ، فكيف إذا جاء أهلنا وخيولنا ودوابنا ، وقد طالت غيبتنا ولا بد من الالمام بأهلنا ونحن نستأذن في العود اليهم ، ونعود حيث يرسم لنا ، فقبض السلطان على جماعة منهم وضربهم وقيدهم

اياما ، ثم شفع فيهم فاطلقوا ، وضمن عليهم انهم بعد المهرجان يسيرون الى الشام». وفي هذا الخبر دليل على وضع بغداد وعلى ان سلطة طغر لبك على عساكره لم تكن متمكنة او فعالة ويعود سبب ذلك الى ان هذه العساكر كانت عبارة عن افراد العشائر البدوية الغزية الذين لم يتعوّدوا ـ ولن يتعودوا ـ على النظام والأوامر التي ينبغي ان تنفذ دونما مراجعة ، «وقل العسكر ببغداد ومضى اكثرهم الى خراسان... وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العرب الى البساسيري...وانهم على عزم قصد بغداد». وزادت احوال بغداد اضطرابا ونزل الكثير من جند طغر لبك في بيوت اهالي المدينة واغتصبوها مع اشياء اخرى ، وقد سبب هذا وقوع اصطدامات كثيرة بين الغز واهالي بغداد مما جعل موقف طغر لبك والخليفة في غاية التحرج لذلك "استدعى الخليفة رئيس الرؤساء واظهر التذمر والامتعاض مما عليه الرعية وقال: قد انهي إلي ما سمعته اذني وشاهدته عيني ومن ارتفاع الدعاء ما انا به مطالب ، هذا الى ما اخافه من سريع المكافاة ، وانا من ركن الدين بين قسمين: إما اعتماد الحق واستعمال العدل وانصاف الرعية واعفائهم من كل اذية واعادتهم الى مساكنهم وصيانتهم في معايشهم وامانتهم في نفوسهم وحراسة اموالهم ، او المساعدة على مفارقتي لهذا البلد وبعدي عن هذه البدع ، ولا اقل من اعتزالي عنها والتبري عند الله منها" وابلغ طغر لبك بقول الخليفة وغضبه فقال: «إن هذا العسكر كثير لا قدرة لي على حفظه ، وربما بدت منهم افعال لا ارضاها وسأتقدم فيما يبين اثره ويحسن موقعه».

في هذا الوقت الذي كانت فيه احوال بغداد تزداد سوءا ، وبنفس الوقت تصبح اكثر ملاءمة للبساسيري قام الأخير بالاصعاد نحو الموصل ربما كي يدخلها تحت نفوذه فيحمي ظهره عندما احس قريش بن بدران بدنو الخطر منه «بعث الى بغداد...يطلب نجدة ومالا يفرقه في العشيرة» ، «وعزم السلطان على الخروج بنفسه إلى البساسيري فمنعه القائم وقال : أقم وابعث العساكر »، «وجرد السلطان ابن عمه قتلمش والحاجب الكبير وغيرهما في الفي فارس

من الأتراك والغز والتركمان ، وعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب ليفرقها قريش في بني عقيل ، وخلعه جميلة لقريش وفرس بمركب ذهب ومنجوق ، ولمسلم بن قريش مثل ذلك »، وسار قتلمش « من بغداد بالغز فنهبوا بلاد العرب وسبوا نساءهم فمالوا إلى البساسيري .... وراسل دبيس بني عقيل الذين مع قريش وبذل لهم العطاء ، وخوفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغز » فاستجاب العقيليون لدبيس وأخذوا بالتخلي عن قريش والانضواء إلى معسكر البساسيري أولاً وقليلا حتى « بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته » . وعندما وصلت الحملة الغزية إلى سنجار اشتبكت بقوات البساسيري « فحمل البساسيري ودبيس ومن معهم عليهم حملة واحدة فهزموهم » بعدما «نهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشيم ، وقتل منهم الخلق الذي لا يحصى عددا ، ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعا بددا ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سرادق الويل» ، وكان من جملة من «قتل الحاجب الكبير ، وهرب قتلمش ومن - بقي - معه وغنم البساسيري وأصحابه غنائم كثيرة . وهرب قريش بن بدران ونجا بنفسه نحو الموصل وبعد هذا سار «إلى دبيس ونزل عليه فتكفل بأمره وإزالة الوحشة بينه وبين أخيه والبساسيري ، ولبس قريش خلعة آتية من مصر وأخذ مالا بعث به إليه»(٣١) .

وفي بغداد جاء الخبر الى السلطان طغرلبك بهزيمة قتلمش ومقتل أكثر قواته و« بأن البساسيري دخل الموصل وخطب لصاحب مصر بها » وهنا قرر السلطان أن يقود قواته بنفسه نحو الموصل «وراسل الخليفة في الخروج إلى الموصل فما أمكنه دفعه لأنه دفعه مرات فقال: « افعل ما تراه فنحن ما نؤثر بعدك عنا ، ثم بعث إليه رئيس الرؤساء وهو بالمخيم وقال : إن أمير المؤمنين ما يؤثر خروجك ، واذا اقمت وبعثت العساكر كان أكثر للهيبة ، فقال : قد كان الصواب ان اخرج الى هؤلاء وعسكري متوفر والهيبة قائمة فمنعت فاشير علي بانفاذ العساكر إليهم والمقام ، فجرى ما جرى ، وقد قووا وكثروا ولابد من سيري اليهم قبل أن يتفاقم الأمر » ، وتحرك طغرلبك على راس

قواته نحو الموصل ، ولم يصلها قبل انقضاء سنة ٤٤٨ هـ ودخول سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٤ م وقبل أن يصل الموصل انسحب منها البساسيري مع قواته وابتعد عنها مقدار عشرة فراسخ ، وعندما وصل طغرلبك الموصل هرب أكثر اهلها منها وعبر إليها «فنزل دار الامارة ، ونزل أصحابه دور الناس وكانت قد خلت منهم ، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنزوله الموصل » ثم غادرها « فطالبه العسكر بنهبها - فتمنع - ... فقالوا : إما أن تأذن لنا في نهبه وإلا انصرفنا ، وسأله هزار سب - أحد شخصيات دولته - في حريم المسلمين وأموالهم ، فقال : قد دافعت عنهم وما أطقت ولا بد لهم من اقامة أو عطاء وما معي مال فتمضي الليلة وتخرج من في البلدة إلى معسكرك ليحرزوا نفوسهم ، فأرسل إلى اهل البلد واخبرهم فارتاعوا وخرج من قدر منهم ، وأصبح العسكر فدخلوا البلد فما أمسى إلا وهو خراب دارس ».

وقربت قوات طغرلبك من عساكر البساسيري وعسكر الجيشان مقابل بعضهما ، وخشي كل من الفريقين الالتحام في القتال ، وقام الوزير الكندري وزير طغرلبك بمراسلة زعماء القبائل العربية في جيش البساسيري ومعسكره واخذ « يدس الى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدي الى تفريق الشمل وتعكيس الأمر ، ويضمن لواحد منهم ولاية الموصل ، و الآخر ولاية البصرة وواسط فأصاب سهم مكره المقتل ، وضرب سيفه منهم المفصل ، ولعب بعقول القوم فعصفت بها عاصفات التفريق والتمزيق » و «جاءت رسل قريش ودبيس الى السلطان يسألان العفو والصفح ويدخلان في الطاعة » ، واراد هؤلاء الرسل أن يساوموا السلطان على البساسيري وعلى حياته فأجاب السلطان « أما البساسيري فالعفو فيه راجع الى أمير المؤمنين فإن عفا عفونا » ، وقد أزعجت هذه الاتصالات البساسيري واخافته فرحل « إلى الرحبة ومعه الغلمان البغدادية ومن تبعه من بني شيبان والأكراد ومقلد وجماعة » .

وعندما أحس طغرلبك بزوال البساسيري خيل إليه أن قضيته باتت بحكم المنتهية ، لذلك قرر أن يهاجم أراضي الدولة المروانية ويخضعها لسلطانه ، لذلك انساح الغز في أراضي نصر الدولة ، فما كان منه إلا أن راسل طغرلبك عارضا اعترافه بسلطانه واستعداده لدفع المبالغ التي تفرض عليه ، ووصل إلى طغرلبك في الموصل « ابراهيم ينال من همذان في عشرين ألف رجل ، فخرج الناس للقائه ولم يتخلف إلا السلطان ، ولما وقعت عينه على عميد الملك ـ الكندري وزير طغرلبك ـ قال له بالتركية : صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك ، وإنما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لايقلع أصلهم ؟ » بعد هذا رضي ابن مروان أن يدفع مبلغ ١٠٠ ألف دينار للسلطان ، لذا سار السلطان طغرلبك نحو سنجار في طريقه إلى بغداد « ففتحها عنوة وسبى نساءها وأطفالها ونهب أموالها وأحرق جامعها ، ونقضت أخشابها ودرست آثارها ، وقيل أن القتل أتى على أربعة الاف نفس وأكثر وجاف المنزل فارتحل السلطان » نحو بغداد عائدا إليها وقبل عودته « سلم إلى ابراهيم ينال الموصل وأعمالها » .

وبعيد وصول طغرلبك إلى بغداد بقليل طلب أن يسمح له بمقابلة الخليفة ، وبعد فترة قبل الخليفة القائم بمقابلة عبده وسيده الجديد والتعرف إليه لأول مرة ، ويقدم لنا غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء الذي عاصر هذه الأحداث وعاش تفاصيلها وصفا حيا لهذه المقابلة يقول فيه : وجلس « الخليفة جلوسا عاما مشهودا ، وجلس رئيس الرؤساء في صحن السلام واستدعى النقباء والقضاة والشهود والأعيان ... وعميد العراق وحواشي السلطان وبعث إلى السلطان ... واستدعاه إلى دار الخليفة ، فنزل في طيار ـ قارب ـ الخليفة وكان قد زين وارسل إليه ، وانحدر خواصه في الزبازب ، وعلى الظهر فيلان يسيران بازاء الطيار والعساكر والناس من جانبي بغداد ، ثم قدم له مركب من مراكب الخليفة ، فنفر من الفيلين ، فقدم له من خيله فرس أشهب فركبه وعليه قباء ديباج أسود ، وعمامة مثلثة مذهبة ، ودخل الدار وبين

يديه أولاد الملوك ... وقتلمش ابن عمه وأشراف القواد والديلم ونحو من خمسمائة غلام من غلمان الترك والكل بغير سلاح ، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلا على فرسه إلى ان فتح له الباب فنزل ودخل ماشيا وتلقاه رئيس الرؤساء ، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه ستور ديباج ، فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في دست ديباج منقوش وعليه العمامة والقميص المصمتان وعلى منكبه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب ، فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعات كثيرة ، ونصب له كرسي دون السرير لطيف ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : أصعد ركن الدين إليه ، وأصعد معه محمد بن منصور الكندري مفسرا له معبرا عنه ، فصعدا ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل لركن الدين أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك ، زائد لشغفه بك وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته في ذلك واجتهد في عمارة البلاد وصلاح العباد ويسر العدل وكف الظلم » ، ثم افيضت بعد هذا عليه الخلع وتوج وخوطب بملك المشرق والمغرب ومنح لقب سلطان فكان أول من منح هذا اللقب رسميا في تاريخ الاسلام ، وبعد أن قبل طغرلبك الأرض عدة مرات سمح له بتقبيل يد الخليفة والمغادرة ، ولكن قبل أن يغادر قيل له : « إن الله تعالى اعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك من بعضها » وقصد من هذا أن تزاد أعطيات الخليفة ومخصصاته وصلاحياته ، لكن طغرلبك تجنب أن يعد بأي شيء جديد ملزم .

ولم تطل إقامة ابراهيم ينال في الموصل حيث تركها وقدم إلى بغداد في مطلع سنة ٤٥٠ هـ/آذار ١٠٥٨ م وقد أغضب هذا السلطان وأزعجه فأراد القاء القبض عليه لولا توسط الخليفة واصلاح الحال بينهما حيث عاد ابراهيم أدراجه الى الموصل ، وفي نفسه الحقد والاستعداد للثورة ضد طغرلبك .

ولقد عرف البساسيري مع المؤيد في الدين بوجود خلافات بين ابراهيم ينال وطغرلبك فعملا على استغلال هذه الخلافات

وتوسيعها ،وكان البساسيري قد استغل عودة طغرلبك الى بغداد ثم سفر ابراهيم ينال إليها فجمع قواته قبل سفر الأخير وتحرك من الرحبة شمالا نحو بالس (مسكنة الحالية) على الفرات واعاد الاتصال بقريش بن بدران الذي كان قد فقد الموصل ، فانضم قريش مع قبيلة عقيل اليه ، وكان القصد من تحرك البساسيري نحو بالس الاستيلاء عليها وذلك ضمن خطة مرسومة لتصفية الدولة المرداسية وضم املاكها إلى الأراضي التي كانت تحكم حكما مباشرا من قبل الفاطميين في القاهرة.

يروي المؤيد بأن القاهرة قد قامت آنذاك بارسال بعض المبالغ الجديدة الى حلب ، وان ثمال بن صالح قد أعطى هذه المبالغ الى اخيه عطية بن صالح وطلب منه حملها الى الرحبة ، لكن عطية عوضا عن أن يوصل هذه المبالغ كما كلف قام باحتجازها لنفسه ، وقد كان لصنيعه هذا اثراً خطيراً على المؤيد في الدين والبساسيري واتباعه ، لهذا قرر المؤيد مغادرة الرحبة والتوجه الى حلب ، وفي طريقه الى حلب وقبل أن يصلها لقي عطية بن صالح فأصلح أموره معه ــ او هكذا تظاهر ــ ووعده باستصلاح شأنه مع الخليفة الفاطمي ،ويقول المؤيد :« ولما كان ثاني يوم التقائي به صادفت اخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم الى حلة عطية ليحملها حملا ويلهب النار فيها فتكا وقتلا ، فتناولته بلسان وعظ صادق موقعا من قلبه ومنطقه ، ونهيته عما هم به نهيا كثر من الصلاح موقعه ودفعت به عن حمى الفريقين دفعا احتمت به حلب واعمالها من الهلكات وامنت من بغتات الأذى بمشيئة الله » ، ويستطرد المؤيد في قصته فيقول :« ولحق ابو الحارث ــ البساسيري ــ على إثري فنزل ببالس .... ومعه قريش بن بدران ونخبة وجوه عقيل » ، ويعطي المؤيد سببا لتحرك البساسيري هذا بأنه قد سبق له ــ أي البساسيري ــ وطلب من نصر الدولة المرواني أن يمنحه ملجأ في مملكته ، وقبل أن يأتيه الجواب« قصر باع صبره » فتحرك شمالا ، وما كانت بالس إلا محطة في طريقه.

عندما يقوم المرء بفحص قصة المؤيد في الدين هذه فحصا نقديا يجد بأن المؤيد قد جاف فيها الصدق وقارب التزييف ، فلقد كان هدف البساسيري هو بغداد، وكانت الرحبة أحسن قاعدة له للنجاح في مهمته ، ذلك انها كانت غير بعيدة عن بغداد ، قريبة من الصحراء الشامية التي كان يمكن استخدامها ملاذا، وأهم من هذا كانت نبعا لاينضب من الرجال البداة المستعدين للقتال إذا ما حضر الذهب ، وكان الذهاب الى الدولة المروانية يعني التخلي عن الثورة ، ولو انه كان فعلا قد قرر التخلي عن ثورته لما صحب معه جنده مع قريش بن بدران وقواته العقيلية ، لهذا يبدو أن تحرك البساسيري هذا كان تنفيذا لخطة مرسومة.

يذكر غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء بأن بالس قد كانت من أملاك عطية بن صالح ، أو بالحري كانت أقطاعا له، ويقدم هذا سببا موضحا لتحرك البساسيري، وهو : لقد تحرك البساسيري وعساكره مع قريش بن بدران وشيوخ عشيرته وأتباعهم نحو بالس للاستيلاء عليها ولانتزاعها من الرجل الذي استولى على الأموال التي أرسلت إليهم من القاهرة، وهنا لابد من التساؤل : لكن لماذا قابل المؤيد في الدين عطية وصالحه وطمأنه ، ثم قابل ثمال ومنعه من القيام بأي عمل ضد أخيه؟ والجواب على هذا السؤال نجده في سياق الحوادث التي تمت بعد الاستيلاء على بالس وادت الى فقدان ثمال لملكه في حلب

ويتحدث المقريزي عن خطة وضعها الوزير اليازوري لانهاء حكم ثمال ويقول في ترجمته لثمال في كتابه المقفى التي استقى مادتها كما يبدو ـ رغم عدم تصريحه ـ من كتاب بغية الطلب لابن العديم مؤرخ حلب الكبير ذلك ان المقريزي كان احد رواة هذا الكتاب وممن حاذوا نسخته الأصلية بخط المؤلف :« فلما ولي الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضيه منه الوزراء قبله ، ورأى ان الحيلة والخديعة أبلغ فيما يريده ، فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير،

وندب لذلك رجلا من ثقاته ، فسار الى حلب وساس الأمر واحكم التدبير مع كاتب معز الدولة بكثرة ما وعدوه به ومناه الى نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الأمير مكين الدولة أبي علي الحسن ابن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر».

ولاريب في معرفة المؤيد بخطط اليازوري هذه ويبدو انه اراد حين قابل عطية ثم ثمال واجتمع بهما ان يخفي ملامح هذه الخطة مع خبر تحرك البساسيري ذلك ان كشفها كان بدون شك سيزيل الشقاق بين الأخوين ويوحدهما ويوحد جهديهما وقواتهما ضد العدو المشترك ، وبعد ان قابل ثمال المؤيد في الدين عاد ادراجه الى حلب دون ان يتصالح مع اخيه ، وعند عودته تفرقت قواته البدوية كما ان قوات عطية كانت قد تفرقت ايضا ، ومما لاريب فيه ان هذا قد افسح الطريق امام البساسيري لتحركه شمالا ومكنه من الاستيلاء على بالس دونما مقاومة ، ويروي المؤيد في الدين بانه عندما دخل الى حلب وجد الأمير ثمال كان لايزال غاضبا «لما اتفق عليه ما اتفق من خروج اخيه عليه وخيانته له في المال الذي سلمه اليه ، وتقاعد عشيرته عنه لما ارادهم في ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقي الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، ودعته هذه الدواعي كلها الى ان يورث سلطانه خلد الله ملكه ارضه ودياره ، ويتفيأ ارضه ويسكن جواره ، فكاتبه يستدعي شحنة يشحن بها قطر حلب، ويقضي بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل ارب ».

غالبا ما تكون كثرة السذاجة وشدة البساطة في رواية اخبار الأمور السياسية مدعاة للشك والريبة لأنه ليس في التاريخ من تنازل عن حكمه دونما إكراه فعلي وتحت ضغط ظروف ليس فيها امل للمقاومة ، وهكذا ما اظن امر تنازل ثمال عن ملكه تم بهذه البساطة التي رواها المؤيد في الدين الذي كان كبير المسؤولين عن العقيدة الفاطمية التي استخدمت التقية بكثرة وكان لديها لكل ظاهر باطن.

لقد كانت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سيئة ، لهذا ارسل الخليفة

المستنصر الى الشام جيشا لجبا على راسه الحسن بن علي بن ملهم، ولقد اشتبك هذا الجيش في عدة مواقع مع القوات البيزنطية لأنطاكية ، وفي هذه الأثناء جهد ثمال بن صالح في اصلاح ما بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وايقاف القتال بينهما، فاخفق فعسكرت قوات ابن ملهم في افامية قرب الحدود البيزنطية وليس بعيدا عن حلب

لقد كان لثورة البساسيري وتحركات الغز اثر بالغ السوء على الوضع الاقتصادي في شمالي بلاد الشام ، يضاف الى هذا ان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨ م كانت سنة جفاف ذات مواسم رديئة ويعتبر الذهبي هذه الحالة السبب الرئيسي الذي اجبر ثمال بن صالح على التخلي عن امارته . اذن القضية : جفاف ومواسم في غاية السوء مع تدمير للأرض ولما جاء من المحاصيل ، وتوقف للتجارة وحركة القوافل ، والبساسيري وقواته تضغط على حلب من المشرق وابن ملهم وجيشه من المغرب ، وقبيلة كلاب ممزقة منقسمة على نفسها ومتوزعة في البادية وسواها . هذه هي الظروف التي عاش تحت كابوسها ثمال بن صالح عام ٤٤٩ هـ ويمكن ان يضاف اليها سبب آخر هام وهو ان الامبراطورية البيزنطية كانت مشغولة في تلك الأوقات بمشاكلها الخاصة التي نجمت عن هجرة التركمان ، وتوغلهم في الأناضول .

عندما غدت الأمور على هذه الصورة التي شرحتها ، سارع الوزير اليازوري لاقتناص فرصة ما أعد له من خطط وما ساعدته الاقدار على انجاحه فارسل ابن عقيل قاضي صور الذي كان انذاك من شخصيات الشام المرموقة وسبق له أن توسط بين ثمال بن صالح والخليفة المستنصر ، ارسله الى حلب للاجتماع بثمال لمحاولة اقتناعه بالتخلي عن حلب مقابل اقطاعه بيروت وعكا وجبيل ، ونجح ابن عقيل في اقناع ثمال ، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني لعام ١٠٥٨ م ترك ثمال حلب متوجها نحو القاهرة ودخل ابن ملهم مع قواته الفاطمية الى المدينة ، وهكذا دخلت حلب مع شمالي بلاد

بلاد الشام تحت السلطان الفاطمي وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح هامة نحو القضاء على الخلافة العباسية ومنع السلاجقة من اقامة امبراطوريتهم ومد السلطان الاسماعيلي على العالم الاسلامي.

ويبدو ان مجيء جيش ابن ملهم الى الشام قد خدم اكثر من غرض ، فبالاضافة لاشتباكاته مع بيزنطة وأخذه لحلب ، لاشك ان وجود هذا الجيش في شمالي بلاد الشام كان يقدم حماية ومساندة لحركة البساسيري ، وكان بامكانه تقديم النجدة والمساعدة حين الطلب وأثناء الحاجة ، هذا وكان في تحرك البساسيزي شمالا فوائد كثيرة اضافة للقضاء على الدولة المرداسية اذ كان يجعله قريبا من ابراهيم ينال لاستعادة الموصل منه ، ولتوسيع الخلافات بينه وبين طغر لبك .

ويبدو مما رواه الخطيب البغدادي الذي عاش هذه الأحداث أن ابراهيم ينال عندما ترك بغداد راجعا نحو الموصل تبعه اخوه طغر لبك « وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في الملك للتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه ، وارسل ابراهيم ينال... رسولا من الموصل الى... ابي الحارث البساسيري وقريش بن بدران... وهما يومئذ في ... بالس بأن أسوق ـ انا المؤيد في الدين ـ اليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية الفاطمية من الأموال الجزيلة والخلع والالقاب والألوية حتى يبطش بطغر لبك البطش الشديد الذي يهد قوته ويطفي نائرته ، فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته.

وأثناء سير السلطان خلف ينال نحو الموصل القي القبض على أحد الجواسيس الذي كان يحمل رسائل متبادلة بين ينال والبساسيري ، وعلم ينال الخبر فتحرك لفوره مع « قطعة عظيمة

من الجيش الى همذان ، ولم يشعر السلطان لأنه كان بعيدا عنه ، ولما علم سار فعدا خلفه خوفا أن يسبقه الى همذان وبها حال التركمان فيملكها ويأخذ من همذان ما بها من خزائن السلطان وأمواله وسلاحه.

اما وقد خلت الجزيرة الآن من التركمان فقد تحرك على الفور قريش بن بدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها، «ولما تمهد امر قريش بالموصل رجع البساسيري الى مركزه بالرحبة» ، وفي الرحبة «علم ان بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب فزحف اليها بالرايات المستنصرية ، وصادف منها ارضا تعج الى الله تعالى من ظلم التركمانية» ، ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم الجمعة السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ / ٢٥ كانون اول ١٠٥٨ م ، «ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ (وكانوا شيعة) والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة والأسعار غالية والأقوات عزيزة» ، وحالما دخل البساسيري بغداد امن لنفسه السيادة على نصفها الغربي حيث كان اكثرية سكانه شيعة ، وحتى يكمل فتحه لبغداد والسيطرة عليها كان عليه ان يجتاز دجلة الى الجانب الشرقي حيث قامت دار الخلافة التي كانت عبارة عن شبه مدينة ، وقد قام الخليفة القائم بترميم أسوار هذه المدينة وبتحصينها ، وشحنها بالرجال والسلاح ، ولمدة عشرين يوما حاول البساسيري العبور الى الجانب الشرقي ولكن دونما نجاح وكان « القتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة » ، واخيرا ضعف اعوان الخليفة وتمكن البساسيري واتباعه من العبور الى الجانب الشرقي « واحاطوا بدار الخلافة فنهب ما لايقدر قدره » ، واثناء سقوط دار الخلافة ونهبها ارسل الخليفة الى قريش بن بدران كيما يقوم بتسليم نفسه اليه ثم قرر ان يتوجه بذاته اليه . فركب وعليه السواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف مجرد ، وعلى راسه اللواء والهاشميون حوله والجواري حاسرات ناشرات الشعور معهن المصاحف على رؤوس القصب وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة» ، وعندما وصل الى

الساحة الكبرى لدار الخليفة وجد قريش بن بدران هناك ، فنادى رئيس الرؤساء ابن المسلمة قريش وصاح : « يا علم الدين امير المؤمنين يستدنيك ، فدنا...فقال: قد آتاك الله رتبة لم ينلها امثالك واحلك منزلة لم يحلها اشكالك ، فان امير المؤمنيين يستذم منك على نفسه واهله واصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العرب ، فقال قريش قد اذم الله له ، قال: ولي ولمن معه ، قال: نعم وخلع قلنسوة من تحت عمامته واعطاها ذماما للخليفة ، واعطى مخصرته لرئيس الرؤساء ذماما...ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء الى قريش وحصلا معه ، فقبل قريش الأرض دفعات...وبلغ البساسيري ، فأرسل اليه يقول: اتذم لهما وقد استقر بيني وبينك ما استحلفتك عليه ، وكانا عند انحدارهما قد تحالفا ان لا ينفرد احدهما عن الآخر بشيء ، ويكون العراق بينهما نصفين فقال قريش: ماعدلت عما استقر بيننا ، عدوك ابن المسلمة ، يعني رئيس الرؤساء، فخذه وانا آخذ الخليفة ، فرضي بذلك" ، «وخرج الخليفة معه ـ قريش ـ من الدار راكبا وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء اسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة...وضرب قريش للخليفة خيمة...فدخلها...وماشى البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير «وهو يقول له: «مرحبا بمدمر الدول ؛ ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » ، واعتذر ابن المسلمة للبساسيري وسأله العفو والغفران لكن البساسيري رفض قبول معاذيره وقال له :« قد قدرت فما عفوت وانت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والاطفال والاموال ، فكيف اعفو عنك وانا صاحب سيف وقد اخذت اموالي وعاقبت حرمي ونفيتهم الى البلاد والقلاع واعتقلتهم فيها وقتلت اصحابي ودرست دوري وسبيتني وابعدتني وفعلت تلك الافاعيل » وحاول الناس (العامة) تخطف ابن المسلمة ليقتلوه فمنعهم البساسيري ونقله الى حيث سجنه.

اما الخليفة الذي انزله قريش في خيمة بين اتباعه فقد لحقه «ذرب عظيم فامتنع من الطعام والشراب ، فسأله قريش وألح عليه حتى

اكل وشرب وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ٤٥٠ هـ)«أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ،وحمل الى الأنبار ومنها الى حديثة عانه على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي »العقيلي الذي كان ابن عم لقريش بن بدران.

وعندما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بايقاف الخطبة للخليفة العباسي واحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي ، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر ، وبهذا كان البساسيري قد قام بالغاء الخلافة العباسية وازالها من الوجود ، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الاسماعيلية غاية امانيها ووصلت رقعة دولتها الى اقصى حدودها ، ولقد كانت فرحة القاهرة بماتم لاتوصف ، وفي بغداد لم تتوقف احتفالات البساسيري ايضا وذلك في سبيل اظهار سطوة الحكم الجديد وقوته فبعد نفي الخليفة بأيام جيء بابن المسلمة واخرج من تحت العذاب فوضع «على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي ـ من بغداد ، ثم صلب حيا ... وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع فمات »

ولم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانه الى ان ظفر طغر لبك بأخيه ابراهيم ينال وقتله ، وقد تم هذا على النحو التالي: فعندما لاحق طغر لبك ابراهيم ينال وصل قبله الى همذان وكانت القوات التي معه قليلة لذلك عندما وصل ينال الى همذان اخذ بحصار هذه المدينة وطال الحصار وامتد ، وفي هذه الأثناء كانت زوجة طغر لبك قد تمكنت من جمع بعض القوات التركمانية وتوجهت بها نحو همذان لفك الحصار عن زوجها ، وفي الوقت نفسه استنجد طغرلبك بالب ارسلان ابن أخيه جغري بك ، فخف بما لديه من قوات نحو همذان ، والتقى ابراهيم ينال بهذه القوات واشتبك بقتال مرير معها نجم عنه هزيمة قواته ووقوعه بالأسر ، وجلب ينال بعد اسره الى طغر لبك فقام بخنقه بوتر قوسه ، وحالما حصل هذا قرر طغرلبك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها ولاحياء الخلافة

العباسية . وكاتب طغر لبك مهارش وطلب منه ان يجلب الخليفة اليه ووعده وتوعده ، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به نحو طغرلبك الزاحف بجيوشه نحو بغداد ، ويبدو أن البساسيري كان قد أراد أن يبعث بالخليفة الى مصر لكن سجان الخليفة العقيلي رفض تسليمه اياه لارساله الى مصر .

وعندما وصلت اخبار انتصار السلطان طغرلبك على أخيه ومن ثم زحفه نحو بغداد ، الى البساسيري، قام بترك بغداد والتحق بحلة دبيس بن مزيد أمير بني أسد وأخذ يحضر نفسه للعبور الى الرحبة ، لكن ما أن وصل السلطان طغرلبك بغداد حتى أرسل بعضا من قواته لمطاردة البساسيري ومنعه بنفس الوقت من العبور الى الشام ، ونجحت قوات طغرلبك في مهمتها هذه حيث لحقت بالبساسيري فقتلته وعندما جيء بجثته الى السلطان وجد «في جيبه خمسة دنانير فدفعها السلطان الى من قور رأسه وأخرج مخه ، ...فترك على قناة وطيف به ـ في بغداد ـ وضربت بين يديه الدبادب والبوقات وعلق مدة ثم حمل الى خزانة الرؤوس .

لم تتجاوز الفترة التي سيطر بها البساسيري على بغداد أيام سنة هجرية واحدة ، وعاد الخليفة الى داره المشعثة وعاصمته المهدمة بعد سنة سجن (٣٢) ، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغرلبك ارساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن اخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخطورة ، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والاسلام وبدأت واحدة جديدة ، وهكذا يمكن اعتبار سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م سنة فاصلة في تاريخ الاسلام ، ويمكن أيضا اعتبار مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الاسلامي وخاصة الجانب الفكري والحضاري منه ، وليس من المغالاة أن يطلق المرء على الفترة التي سبقت مقتل البساسيري وقيام الامبراطورية السلجوقية بكل ما لها وما عليها اسم «فترة الحرية» والفترة التي تلتها اسم «فترة الحتمية» .

لقد كان السلاجقة سنة متعصبين لسنتهم وكان لهم طرقهم الخاصة للدفاع عن السنة ولجلب الناس إلى حظيرتها ، وغالبا ما اعتمدت هذه الطرق على العنف والقمع والتهديد بالموت ، ونادرا ما اتخذت من الحجة والاقناع وسيلة ، وقبل الاستطراد بهذا مفيد أولا أن نتذكر بأن القسم الأعظم من العالم الاسلامي كان حتى وفاة البساسيري يدين معظمه إما بإحدى عقائد الشيعة أو كان يخضع لحكم أو لنفوذ إحدى الدول الشيعية ، ولقد كانت الدولة الفاطمية هي أعظم القوى العقائدية والسياسية للشيعة وكان القضاء على ثورة البساسيري انحسارا للمد الشيعي وبداية حاسمة للعودة نحو السنة ، ولا تكمن القضية في أمر انتصار السنة على الشيعة وإنما في الطرائق التي استخدمت ومكنت من هذا الانتصار

وأمر الصراع بين الفكر السني والعقيدة السنية من جهة والحركات الشيعية من عقائد وأفكار من جهة أخرى هو ليس بالجديد في التاريخ الاسلامي ، وقيام الثورات الشيعية والقضاء عليها أمر عادي أيضا في تاريخ الاسلام ، إنما الجديد هو نوع الملاحقة المستمرة التي لقيتها الحركات الشيعية منذ الآن فحولتها من حركات ذات أهداف توسعية ، وبرامج ذات نظرة شاملة ، إلى طوائف همها المحافظة على مالديها من مكاسب ، وغدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءا من برامج للنشر على الناس قاطبة عبارة عن أشياء محاطة بأطواق من السرية المميتة ، ولعل ما أصاب العقيدة الاسماعلية بعيد القضاء على ثورة البساسيري بفترة وجيزة كاف للتدليل على هذا،فلقد قامت حركة جديدة بين الاسماعيلية أسسها حسن الصباح الذي اتخذ من قلعة الموت مركزا له ، ولقد تبنت هذه الحركة ـ للانتصار والانتشار وللقضاء على أعدائها ـ عقيدة الاغتيال السياسي بواسطة المدية ، وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لاتلجأ إليها الحركات ذات الاهداف الثورية التوسعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي هي حركة منكمشة تزول بزوال خط الدفاع وبتحطمه .

ولقد أنتج الصراع بين السنة والشيعة في السابق نتاجا ثقافيا له

قيمة حضارية كبيرة ، ولكن السلاجقة الآن تخلوا عن قرع الحجة بالحجة واتخذوا السيف ، وبنفس الوقت أقاموا المدرسة النظامية في بغداد وكان لهذه المدرسة فروعا في أغلب أصقاع وبلدان الامبراطورية السلجوقية ، ولقد ارتبطت المدرسة النظامية بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا أفكارها ونشروها ، وطبيعي أن هذا شيئاً خطيرا جديدا في تاريخ العقيدة الاسلامية ، فقد اعتادت هذه العقيدة منذ قيامها على إقامة الدول وتوجيهها ولم تحتج قط إلى مساندة حاكم او صاحب نفوذ كي تنتشر ، اما الآن وقد أخضعت لتوجيهات الدولة (دولة أوتوقراطية عسكرية) بشكل منظم ومنهج ومدعم بقوة السلاح فهذا أمر خطير ، صحيح انه مكن من جعل معظم الشيعة سنة (وكان هذا سيتم حتما إنما بوقت أطول) لكنه الآن وقد تم بهذه الوسيلة فإن ماجره على السنة كان فادح الثمن ، لقد تحولت السنة نفسها بعد حين إلى طائفة كبيرة أغلق فيها باب الاجتهاد ، فزال الابداع من بين صفوفها واختفى أعلام الفكر الكبار ، وكم كان الأمر خطيرا أن تفقد السنة حيويتها وإبداعها وتنقلب إلى محافظة وقياس بحت وتتحول كتبها إلى شروح وحواشي ليس أكثر .

القضية بالغة الخطورة فمازال العالم الاسلامي يعيشها ، لذا يكفي هنا للبرهنة سوق المثالين التاليين فقط : في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، أي قبل أن يدخل طغرلبك بغداد ، « وقف طغرلبك السلجوقي على مقالات الأشعري ... فأمر بلعن الأشعري على المنابر » ، « فضج من ذلك ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعمل رسالة سماها شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة ، وقال فيها : أيلعن إمام الدين ومحي السنة ؟ ! وحاول عدد آخر من علماء المسلمين إيقاف عملية اللعن هذه فأخفقوا (٣٣) .

عاش أبو العلاء المعري قبل وفاته سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م في معرة النعمان التي كانت من أملاك المرداسيين الذين اعترفوا

بالخليفة الفاطمي ، وبشر المعري في المعرة بفلسفته وافكاره ، وكتب وقال ما أراد دون خشية أو خوف ، ولم يحاول واحد من معاصريه الضغط عليه أو تهديد حياته باستخدام العقوبة أو السيف ضده ، حتى المؤيد في الدين داعي الدعاة (أي السكرتير الأول للحزب الفاطمي) الفاطمي فإنه رغم معرفته بأن أفكار المعري تعارض آراء العقيدة الفاطمية لم يحاول أبدا استخدام العنف معه ، ولم يوح به ، رغم انه كان يستطيع فعل ذلك ، والذي فعله المؤيد هو اتباع الوسيلة الجدلية وقرع الحجة بالحجة بالمناقشة ، ولقد وصلنا العديد من الرسائل التي تبادلها المعري والمؤيد بينهما ، هذا وإن جميع الذين قالوا بتكفير المعري او زندقته لم يكونوا من معاصريه بل كانوا جميعا ممن جاء بعده ، أي كانوا من نتاج عصر الحتمية عصر النصر السلجوقي والمدرسة النظامية) (٣٤)| .

ويجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بنهاية سلطنة طغرلبك فبعد أن عاد إلى بغداد وأعاد إحياء الخلافة العباسية ، شعر انه لم يبق أمامه من القوى مايخشى ، وأن ما بقي عليه هو التوجه إلى الشام لاخضاعه ومن ثم إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية ، لكنه قبل أن يقوم بهذا أراد أن يرفع من مكانة نفسه ، ويزيد من نفوذه وسيطرته ، فبعد أن قابل الخليفة العباسي طلب من الخليفة الزواج من ابنته ، والخليفة العباسي ذلك الانسان المتحضر كان مهما علت نظرته إلى طغرلبك ومهما خافه وهابه ، كان يعتبر طغرلبك بدويا شبه متوحش وحديث عهد بالنعمة ، ولايعدو عبدا من عبيد الخلافة العباسية وجندها ، وهو قبل كل شيء كان اعجميا لايمت إلى العرب وقريش وبني هاشم بصلة ، لذا كان زواجه بابنة الخليفة أمر لايكاد العقل يتصوره ، ورغم كل هذا فلقد استجاب الخليفة ـ بعد ضغوط شديدة ومعاتبات وتهديدات واسعة ووعود ـ مكرها لطلب طغرلبك الذي كان قد جاوز السبعين من عمره فوافق على زواجه من ابنته التي كانت لم تكن تتعدى بعد العشرين من عمرها ، وليت أن الأمور قد توقفت عند هذا الحد ، فالخليفة الذي وجد أن الزواج امر لابد منه أراد أن تتم مراسيم هذا الزواج حسب التقاليد الاسلامية العباسية

وفي مدينة بغداد ، لكن طغرلبك رفض ذلك واصر على ان يتـم الزواج في أصفهان وحسب الأعراف والتقاليد التركية ، ومرة اخرى رضخ الخليفة واذعن لرغبة سيده « وعبده » طغرلبك فـأرسل ابنتـه إلى أصفهان ، ولم ينجم عن هذا الزواج شيئا فقد كان طغرلبك بالاضافة إلى تقدمه بالسن عقيما ، كما انه كان وقت الزواج عليلا لذا لم ينعم بابنة الخليفة طويلا ، فبعد ثلاثة او اربعة أشهر توفي طغـرلبك وكان ذلك سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م ، دون ان يتـرك وراءه ولدا يخلفـه في السلطنة ، وبموت طغرلبك برزت مشكلة خلافته إلى الوجـود ، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي الب ارسلان ابـن أخيه جغـري بـك السلطنة ، ويعد الب ارسلان من أعظم الحكام واشهرهم في التاريخ الاسلامي وهو مع ابنه ملك شاه كانا أعظم سـلاطنة بني سـلجوق على الاطلاق (٣٥) .

☆ ☆ ☆